تحليل الخطاب الإعلامي:

1. التطور التاريخي للدراسات الكيفية للخطاب الإعلامي:

ركزت بحوث الإعلام – وما تزال – علي تأثير وسائل الإعلام في الجمهور اعتماداً علي ما يعرف بدراسات الجمهور ، وأهملت إلى حد كبير دراسة مضمون وشكل الرسالة الإعلامية التي يفترض أنها تحدث التأثير المطلوب أو المرغوب من وجهة نظر المرسل أو القائم بالاتصال سواءً كان شخصاً أو مؤسسة إعلامية.

وحتى عندما التفت الباحثون لأهمية دراسة شكل ومضمون الرسالة الإعلامية لم تعرف الدراسات الإعلامية سوي التحليل الكمي لمضمون أو محتوى الرسالة الإعلامية، والذي ذاع صيته بفضل مقال بريلسون Berelson الشهير، والذي نشره عام 1952 بعنوان التحليل الكمي للمحتوي في أبحاث الاتصال . واستناداً إلى مساهمات بريلسون وآخرون سادت تقاليد التحليل الكمي الدراسات الإعلامية، وأصبحت جزءًا من التقاليد البحثية في حقل الدراسات الإعلامية ، بينما اختفت أو غيبت الدراسات الكيفية واتهمت بالتحيز والبعد عن الموضوعية.

وفي مطلع السبعينيات من القرن الماضي اتجه عدد من الباحثين الاسكندنافيين في مجال الإعلام إلى تأييد واستخدام التحليل الكيفي للمحتوي من منظور أيديولوجي،وعرف هذا التوجه بالاتجاه الإنساني humanistic trend والذي ركز علي علاقات القوة التي تحاول النصوص الإعلامية التعبير عنها ، كما سعي لتطوير أدوات التحليل الكيفي مستفيدًا من التطور الذي تحقق في مجال الدراسات اللغوية والسميولوجية(العلاماتية)، وتحليل النص ، وكان من أبرز ممثلي هذا الاتجاه الباحث الدانماركى بيتر لارسن Beter Larsen ، والذي أكد أن التحليل الكيفي ليس غاية في حد ذاته ، ووفقا لمايرينج Mayringفإن التحليل الكيفي للمحتوي يقوم علي الفحص الدقيق لمصادر المادة المزمع تحليلها ، وعلى الملاحظة الصريحة والفهم الذاتي للذين يقومون بالتحليل ، مع الاهتمام أيضا بوجهات نظر الآخرين ، بالاضافة الي تقبل نتائج إعادة التفسير ،وتعتبر المصطلحات السميولوجية والنظرية البراجماتية للمعنى وقواعد التفسير علي أساس التحليل البنيوي للنص من أدوات عملية التحليلي الكيفي،والتي تتضمن المبادئ الأساسية لتلخيص وشرح وهيكلة المادة محل الدراسة.

لكن هذه الأدوات المنهجية لم تكن كافية لدراسات الرسائل أو النصوص الإعلامية في علاقاته المتشابكة والمعقدة مع الرسائل السابقة ، ومع بنية المجتمع والقوة المهيمنة عليه ، من هنا تطورت محاولات التحليل الكيفي في الثمانينات من القرن الماضي باتجاه تبنى منهجية تحليل الخطاب ،وتحليل الخطاب النقدي، وقد تأثرت هذه المحاولات بهيمنة إتجاه ما بعد البنيوية . ورغم عدم الاتفاق علي مفهوم الخطاب إلا أنه أصبح يستخدم علي نطاق واسع في تحليل النصوص الإعلامية ، وقد نشأ مفهوم الخطاب في إطار

دراسات اللغة والألسنية أو علم اللغة الحديث، رغم أن الألسنيون الأوائل أمثال سوسير Saussure 1857-1913، وهلمسلف1965 -1899 Hjemslew ، وجاكبسون -1896 Jakobson وغيرهم لم يناقشوا موضوع الخطاب وإنما كان بيسنس Buyssens أول من طرح مسألة الخطاب في الدراسات الألسنية عام 1943،ولكن النقلة الألسنية الكبيرة في مسائل الخطاب جاءت علي يد بنفست Benvenist 1902-1967وفي الوقت الحالي هناك توجه كامل- كما يقول الزواوي بغورة- في فرنسا يسمي تحليل الخطاب ، ويظهر في أشكال مختلفة يمكن تصنيفها إلى أربع منظومات كبري هي ، المنظومة المنطوقية ، والمنظومة الحجاجية ، والمنظومة السردية والمنظومة الخطابية ، وقد ارتبطت الأعمال الأولى للبنيويين الفرنسيين- أمثال كلود ليفي شتراوس ، ورولان بارت ، وجان لكان وميشيل فوكو - بهذه الأشكال من تحليل الخطاب.

2. دور السيميولوجيا في تحليل الخطاب الإعلامي:

ويمكن القول أن السيميولوجيا (العلاماتية) قد قادت في الستينات وأوائل السبعينات حقل تحليل النصوص الإعلامية، ووفرت للباحثين أسلوبًا لتحيل المعني، بينما هيمن التحليل الأيديولوجي علي هذا الحقل في أواخر السبعينات وبداية الثمانينات، وقد زود الباحثين بمنهج للتفكير في العلاقات بين المعني والبنية الاجتماعية ،ومنذ منتصف الثمانينات وحتى الآن أصبحت نظرية الخطاب هي التي تقود عمليات تحليل النصوص الإعلامية، ولقد دفعت نظرية الخطاب الباحثين إلى إعادة التفكير في العلاقة بين المعنى والبنية الاجتماعية ،من خلال التركيز علي السلطة من داخل نظام المعني وليس من خارجه ، فنظم المعني نفسها تعتبر سلطة ،وهي لا تظهر بسهولة كنظم، مثل بنية اللغة بل من خلال ممارسات ذات دلالة ، إنها ليست ببساطة المعاني المرتبطة بالممارسات الاجتماعية ، كما يقول ألتوسير في نظرية الأيديولوجية ، بل إن المعني والممارسة لا يمكن التمييز بينهما فهما مترابطان ، أي أن المعني هو الممارسة في نظرية الخطاب.

ويشير الخطاب - كما يقول فيركلاو - إلى استخدام اللغة حديثا وكتابة، كما يتضمن أنواعًا أخرى من النشاط العلاماتي مثل الصور المرئية - الصور الفوتوغرافية، الأفلام ،الفيديو ،الرسوم البيانية - والاتصال غير الشفوي - مثل حركات الرأس أو الأيدي ... الخ - ويخلص إلى أن الخطاب هو أحد أشكال الممارسة الاجتماعية ، ثم يستخدم فيركلاو الخطاب بمعني أضيق حين يقول : "الخطاب هو اللغة المستخدمة لتمثيل ممارسة اجتماعية محددة من وجهة نظر معينة" ، وتنتمي الخطابات بصفة عامة إلى المعرفة وإلى بناء المعرفة

علي أن فيركلاو وغيره من الباحثين في حقل تحليل الخطاب النقدي قد توسعوا في تعريفاتهم واستخداماتهم لمفهوم الخطاب بحيث غدا عندهم يشمل كل شيء، وتقع تحت مظلته تخصصات ومجالات واسعة في العلوم الاجتماعية ومن منظور نقدي. وقد ترافق ذلك بالتوسع في استخدام تحليل الخطاب النقدي عبر

تخصصات مختلفة ولأغراض متباينة، مع غياب التعاون بين هذه التخصصات، ما أدى إلى عدم الاتفاق علي ما هو تحليل الخطاب، وكيف يمكن تطبيقه ، وما هي حدوده وإمكانياته ، ومثل هذه الحالة لا تقلق الكثير من الباحثين حيث يري البعض أن كثيرًا من المفاهيم والنظريات التي تستخدم في العلوم الاجتماعية لا يوجد حولها اتفاق ،كما هو الحال في عدم الاتفاق حول تعريف الأيديولوجية بين التخصصات المختلفة.

إن عدم الاتفاق علي مفهوم الخطاب واستخداماته لم تمنع من انتشار بحوث تحليل الخطاب وتناولها لموضوعات ومجالات متعددة ، من بينها تحليل الخطاب الإعلامي ، الذي يعتبر تطورًا مهمًا لمجال التحليل الكيفي للرسائل الإعلامية وشروط إنتاجها وتداولها وتأثيرها في الجمهور ، فضلا عن تفاعلاتها مع الظروف التاريخية والمجتمعية.

مجمل التطورات السابقة فيما يتعلق بتطور تحليل النصوص والرسائل الإعلامية انعكست بصور مختلفة، وأحيانا متباينة علي البحوث والدراسات العربية في مجال الإعلام ، كما كان لها – وبدرجات مختلفة – نماذجها وممثليها ، ولكن بصفة عامة كانت تلك التطورات المنهجية والنظرية تنتقل إلى الدراسات والبحوث العربية بفارق زمني كبير ، كما كان يجري تبنيها أحيانا بطريقة آلية وبدون تمثل لخصوصيات اللغة والثقافة العربية . وتكفي الإشارة هنا إلى أن البحوث الإعلامية العربية، والتي صدرت باللغة العربية في الجامعات المصرية استخدمت تحليل المضمون الكمي لأول مرة في مطلع السبعينات ، وقد هيمن التحليل الكمي للرسائل الإعلامية علي دراسات وبحوث الإعلام– خاصة رسائل الماجستير والدكتوراه – في مصر خلال السبعينات والثمانينات ، إلي ان ظهرت في نهاية الثمانينيات أول دراسة استخدمت تحليل الخطاب اعتمادا علي مساهمات اللغويات واللغويات النقدية ، حيث استخدمت التحليل الاسلوبي والدلالي ثم ظهرت بعدها العديد من الدراسات والرسائل العلمية التي استخدمت منهجية تحليل الخطاب.